الأَديبْ و المُفكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
برنـامج هـل تعرفـني؟

البحـتري

مؤثرات موسيقية.....

- من حقّي عليكم أن تعرفوني.. فأنا صاحب الكلمة الفصيحة والصورة الشعرية المبدعة والحفظ الكثير والخيال الخصيب. أنتمي إلى عصر هو في نظر البعض من المؤرخين خير عصور الإسلام وأعظمها. وإن لم يكن الأمر كذلك في تقديري أنا.. وعشت في قرن هو من أغرب القرون وأبعدها تأثيراً في مصير الحضارة العربية الإسلامية.. ولا غرابة في ذلك فقد ولدت عام 822م في عصر المأمون الخليفة العباسي العالم، وغادرت دنياكم آسفاً عليها رغم ما واجهت فيها من المتاعب عام 892م في عصر المعتضد أحد الخلفاء العباسيين أيضاً..

موسيقـــــى.....

- ولكي تعرفوني حقّ المعرفة يجدر بي أن أحدّثكم حديث القرن الذي ظهرت فيه وشاركت في تحقيق منجزاته ومكاسبه..
- الحقيقة أنّه كان بِدعاً من القرون. فيه ظهر أكبر كتّاب العربية وأدبائها.. ولمع نجم العباقرة والمغامرين من الساسة.. وانفجرت في أثنائه طاقات غريبة عجيبة..

فيه كان أعظم الخلفاء العباسيين أو على الأقل واحد من أكبرهم هو عبد الله المأمون الحاكم العالِم.

وفي عهد المأمون وقعت أحداث غريبة. فقد انتصر المعتزلة دعاة الحرية الفكرية، وبدأت مع انتصارهم فترة اضطهاد الحريات. وهي ظاهرة جدّ غريبة. يكفي أن نذكر من أحداثها محنة الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المشهور عندما رفض القول بخلق القرآن الكريم.

وتغيّرت أحوال الناس في هذا القرن فإذا بالمصائر تتغيّر، فيصبح المضطهِد مضطهَداً وينقلبُ السحر على الساحر فتتساقط الضحايا هنا كما تساقطت هناك.

وإذا كان المأمون والواثق والمعتصم من الخلفاء قد مثّلوا الفريق الأول فإنّ المتوكّل الذي أتى بعدهم قد مثّل الفريق الثاني.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضـان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

موسيقـــــى.....

- طبعاً أنتم لم تعرفوني بعد، ذلك أنّني لم أحدّثكم عن نفسي فأقدّمها بحيث تعيّنون شخصي في نوع من الدقة والوضوح.
- ولدت في بلدة منبج من أعمال سوريا الشمالية. وعشت فقير الحال خلال طفولتي وصباي. واكتشفت آنذاك، وقد أدركت من المعارف الأدبية ووعيت من اللغة شيئاً غير قليل، أنّ في وسعي أن أنظم الشعر. فلم أتردّد في نظم المدائح لصغار القوم ورجال من العامة يأتي من بينهم باعة الكوسى والباذنجان والفاكهة. وكان يصيبني من هذه المدائح بعض النافلة أتقوّى بها على العيش. وما عساني أن أفعل من أجل الرزق وأنا لا أجد بين يدي في بلدة صغيرة كبلدتي غير هذا النوع من الناس.

ضربة موسيقية.....

- ومضت فترة قصيرة شعرت معها أنّ البلدة لم تعد تتّسع لي. فهي موطن للفقراء. ومكان معزول عن عالم الجاه والثروة والقوة الذي كانت تأتيني أنباؤه عن طريق بعض المسافرين. وفكّرت في مغادرة مسقط رأسي على ألّا أعود اليه أبداً. وأنّى للأديب مثلي أن يعود على موطن الفقر والغربة والعزلة. لقد كنت أحلم بالثروة والجاه وكنت مستعداً لدفع الثمن حتى ولو كان من ماء وجهي.
- والواقع أنّ الأدباء والشعراء في أيامنا كانوا أحد رجلين اثنين:

واحد يعيش في كنف الدولة على الخير والشر يساندها في كلّ عمل من أعمالها ويزيّن كلّ ما يصدر عنها، يزوّر الوقائع ويكذب عن ساببق إصرار وتصميم وهو يعلم أن الحقيقة غير ما يقول. ولكنه أكل العيش هو الذي يرغمه على ذلك.

وواحد يرفض أن يكون من الإمّعات فهو يحترم رأيه ويستقلّ في تفكيره ولا يبالي ما يصيبه من الأذى والفقر، فهو يجد متعة خاصة في تحمّل فنون العذاب أو هكذا يبدو تماماً كما يجد الأول متعة في التقلّب على سرر من الحرير وألوان من النعيم.

- الأول لا يبالي أن يكذب في المساء ما قاله في الصباح. والثاني لا يبالي الإصرار على موقفه حفاظاً منه على كرامة الكلمة وعزة العقيدة.
- ولعلكم تذكرون قصة كلّ من دعبل الخزاعي ومأساته على يد والي البصرة وفاجعة صالح بن عبد القدوس على يد الخليفة المهدي، والنهاية البائسة لحياة ابن المقفع. بينما تذكرون فنون الثروة والجاه التي كان يستمتع بها رجال من مثل الحسن بن هانىء المعروف بأبي نواس والحسين بن الضحاك وأبان اللاحقي وأبي تمام.

ضربة موسيقية.....

- ولا أخفي عليكم أنّني كنت أحلم بأن أكون واحداً من هؤلاء المحظوظين.. وكنت مستعداً لوضع كل عقلي وعاطفتي وإرادتي وشعري في خدمة ولي الأمر أدور معه حيث يدور. كنت راغباً في الحياة الحلوة الرافهة. ورحت أغذ السير بعيداّ عن منبج فحملتني قدماي إلى حلب. وهناك حدث ما لم أكن أنتظره فقد علق قلبي بغادة جميلة كادت تصرفني عن قصدي وتقنعني بأنّ الدنيا تقف عند قدميها الجميلتين وقامتها الممشوقة وسحر عينيها. ولكنّ الواقع مع أنّني لم ألبث حتى حرّرت نفسي من هذا السحر العجيب، وتابعت طريقي أنشد المال والشهرة حتى بلغت مجلس الأمير أبي سعيد محمد بن يوسف الطائي. فوقفت بين يديه ورحت أردّد على مسمعه ما صغته من لفظ كاللؤلؤ وصور نابعة من مواطن العبقرية. واكتشفت فجأة وأنا أتتبّع أثر شعري في نفسه أنّني قد حققت كسباً غير قليل.
- وشاء سوء حظي في ذلك المجلس أن يقف شاب يكبرني بعشر سنوات على الأقل فيتّهمني بسرقة القصيدة التي أنشدتها أمام الأمير فيعنّفني الأمير في لطف ويحاول صرفي عن احتراف فن السرقة المزعومة ويقول: "يا فتى قد كان لك في قرابتك لنا وودنا لك ما يغنيك عن هذا".. وأسقط في يدي وأظلمت الدنيا أمام عيني ولكنّ سمائي لم تلبث حتى انقشعت فعرف الأمير حقيقة أمري من غريمي الفتى الشاعر نفسه. ثمّ عرفت في هذا الشاعر صديقاً وأستاذاً ورفيقاً معيناً. فهو الذي مهّد لي طريق الشهرة والنجابة. إنّه أبو تمام شاعر الجيل في ذلك الوقت.

ضربة موسيقية.....

- هل عرفتموني؟
- اسمعوا أقل لكم شيئاً آخر عني. لقد أدناني أبو تمام منه ورعاني ما وسعته الرعاية في رزقي وشعري، وطالما أوصاني تنجير الأوقات المناسبة لنظم الشعر وعلمني كيف أجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً في الغزل والمدح وغيرهما من فنون القصيد.
- وقد حاول البعض الإيقاع بيني وبينه. ولكنّني لم أتأثر بكلمات الوقيعة وقلت لمن يحب أن يسمع: "والله ما ينفعني هذا القول ولا يضرّ أبا تمام.. والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أنّ الأمر كما تقولون، ولكنّي والله تابع له لائذيه نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تخفض عند سمائه"..
- وأسقط في أيدي الوشاة. ولا أنسى أن أبا تمام قد أوصى بي وجهاء المعرّة وأغنياءها فأجروا عليّ جراية سنوية قدرها أربعة آلاف درهم. وهي ليست بالمبلغ اليسير..

ضربة موسيقية.....

- وبدأ اسمي ينتشر وراح الناس يتناقلون شعري ويعجبون به فقلت حينذاك مصوراً ما بلغته من الشهرة:
- وشهرت في شرق البلاد وغربها فكأنني في كل ناد جالس، وما زال اسمي ينتقل من ناد إلى ناد ومن مدينة إلى مدينة حتى وجدتني أقف في بغداد ترافقني شهرتي ولما أتجاوز الخامسة والعشرين من عمري. ولا تسألوا عن فرحتي في تلك الفترة. لقد كانت أحلامي بالذهب والفضة والرياش الوثير والمركب الرافه والجواري الحسان والجاه العريض تتعرّض لخيالي في اليقظة والنوم. وكنت أمنّي النفس بكل هذه الأمنيات مع استعدادي التام للتزلف للصغير والكبير ولمدح كلّ من أستبين به طريقاً إلى قصر السلطان. وكم كانت فرحتي كبيرة حين تمكّنت بعد مشقة وانتظار من الدخول إلى قصر الوزير الأديب ابن الزيات، الذي اشتهر بجبروته وظلمه وتعذيبه لضحاياه من السياسيين في تنّور من الحديد المحمي تغطي المسامير قاعه الداخلي. فقلت فيه وأنا أتطلّع إلى نوافذ قصر الخليفة الواثق:

صام العزم، حاضر الحزم ساري الفكر ثبت المقام صلب العود
وجه الحق بين أخذ وإعطا وقصد في الجمع والتبديد
فاستوى الناس فالقريب قريب عنده والبعيد غير بعيد

وكم كانت خيبتي شديدة مؤلمة حين توفي الواثق وسقط ابن الزيات فصلي نار تنّوره كما كان يصلي فيها ضحاياه من قبل..

ضربة موسيقية.....

- وشاء القدر بعد ذلك أن أجد في عطف أبي الحسن علي بن المنجم الوسيلة للوصول إلى الوزير الفتح بن خاقان. والذي ظننت صادقاً أنّ في وسعه الوصول بي إلى قصر الخلافة. ورحت أقول مدحتي الأولى للوزير الخطير وقد جاء فيها:

ولما حصرنا سدة الأذن أخرت رجال عن الباب الذي أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذي مهابة أقابل بدر الأفق حين اقابله
فسلمت واعتاقت جناني هيبة تنازعني القول الذي أنا قائله

ضربة موسيقية.....

- وأخيرا تحقّق الحلم الكبير.. لقد بلغت قصر الخليفة وأصبحت من ثمّ شاعر المتوكل. ورحت أنشده المدائح خلال خمسة عشر عاماً أُحسِنُ بها ما ساءَ من فِعلِه، وأزوّر الوقائع، وأزيّن للناس ما قَبُح من شأن السلطان لا أبالي على أيّ جنب وقعت الدولة. المهم أن أحصل على ما كنت أحلم بالحصول

عليه. وكان لسان حالي معه ومع القوم الكبار قولي حين طلب إليّ دفع الخراج عن أرضي الزراعية بالتقسيط:

- وما أنا والتقسيط إذ تكتبونني وتكتب قبلي جلة الناس أو بعدي
- سبيلي أن أعطي الذي تطلبونه وشرطي أن يجدى عليّ ولا أجدي
- صحبت أناساً أطلب المال عندهم فكيف يكون المال مطلباً عندي

ثم هل تصدّقون أنّني قلت في المتوكّل البيت التالي؟:

من أبى حبّهم فليس من اللــه ولو صام ألف عام وصلّى

ولكنّ هذا كلّه لا يخفي حقيقة أساسية هامة وهو أنّني قد أعطيت العربية شعراً قلّما حظيت به لغة أمة من الأمم. فإذا كان الأغنياء والأمراء والخلفاء قد أعطوني ما لا ينفد كثيره بعد سنوات فقد أعطيتهم ما لا ينفد على الزمن أبدا..

ضربة موسيقيـة.....

- بقي أن أقول لكم شيئاً عن نهاية علاقتي بالخليفة العباسي المتوكّل. لقد جاء اليوم الذي غاب فيه حظّي منه ووجدتني شاهداً على جريمة قتله وقتل وزيره الفتح بن خاقان من قِبَل بعض القادة المسلّحين وبالاتفاق مع ولده ووليّ عهده المنتصر.
- ولا أخفي عليكم أنّني قد عادت نفسي إلى ما بعد الرثاء الذي رثيت به الخليفة القتيل وهجوتُ فيه وليّ عهده، وأدركتُ أنّ الحيّ خيرٌ من الميت ومسحت آثار الحزن في نفسي، وأتيح لي بواسطة الوزير أحمد بن الخصيب أن أقف مادحاً بين يدي الخليفة الجديد. ولا أنسى أنّني بادرت إلي تحريضه على وليّ نعمتي ابن الخصيب نفسه حين فقد هذا الأخير عطف السلطان فقلت:

- يا ناصر الدين انتصر موشِكا من كائد الدين ومغتاله
- فهو حلال الـدم والمـال إن نظرت في باطن أحواله
- والرأي كلّ الرأي في قتلــه بالسيف استصغاء أمواله

ورجائي ألّا تلوموني على موقفي هذا. هكذا هي الدنيا. وقد تكرّر هذا الدور الذي قمتُ به مع ابن الخصيب في عهد الخليفة المستعين. فمدحتُ الخليفة بادىء الأمر ثمّ لم أتردّد في الحضّ على قتله عندما ذهب حظّه وتعثّر به سلطانه.

واستمرّت الأيام ذهبية اللون بالنسبة لي في أيام المعتزّ والمهتدي حتى جاء وقت خفت فيه على نفسي من الاتهام بالزندقة فأدركت أنّ عصري قد ولّى إلى غير رجعة واخترت الانتقال إلى مسقط رأسي منبج لا سيما وأنّني كنت قد نيّفت على الثمانين من أعوامي..

ضربة موسيقيـــــــة...

- لعلّكم عرفتموني. ولكنّني أزيدكم للمرة الأخيرة تعريفاً بنفسي. كنت كما يقول النقاد إماماً من أئمة الشعر ولا سيما في المديح والوصف منه. وكنت أدرك حظّي من هذه الإمامة. فإذا وقفت أمام الممدوح أنشده تزاورت في مشيتي، مرّة إلى اليمين ومرّة إلى اليسار، ثم أشير بكمّي وأقف عند كلّ بيت وأقول لنفسي: أحسنت والله، وأقبل على المستمعين فأقول لهم: ما لكم لا تقولون أحسنت، هذا والله ما لا يحسن أن يقول أحد مثله!
- كما عرفت بشعر وصفي تتعاصر عنه أقلام كبار الشعراء. يكفي أن تتذكروا قصيدتي في إيوان كسرى أو في وصف قصر الجعفري للمتوكّل أو في وصف الأسد والذئب.
- ورجائي أن تصدروا أحكامكم بعد اتخاذ الحيطة والحذر ودرس الظروف التي أحاطت بي، فما أنا إلا فرع من شجرة العصر.

فإن عشت محموداً فمثلي بغى الغنى ليكسب مالاً أو ينثّ له حمد

وان مت لم أظفر فليس على امرىء غدا طالباً إلا تقصّيه والجهد

ضربة موسيقيـــــة.....

- وبعد هل عرفتموني؟ إذا كنتم لم تعرفوني حتى الآن فإنّه يسرّني أن أعلن لكم عن اسمي. فأنا الوليد بن عبيد الله. كنيتي أبو عبادة. ونسبي عربي من طيء، ولقبي البحتري.....

موسيقى نهاية.....